"الترجمة العربية"

أحداث سنة ٨١٠م:

<< ... توفى فجأة الفيل الذي كان قد سبق أن أرسله

إليه هارون ملك المسلمين ... >>

" التعليق على النص السابع "

أخيراً، توفى الفيل بعد وفاة صاحبه الأصلي هارون الرشيد[٨٩]، فبوفاة الخليفة العباسي انطوت صفحة شهدت تضاعف العلاقات العباسية الفرنجية وازدياد الحركة التجارية بين البلدين نتيجة نجاح شارلمان[٩٠] في حفظ الأمن والنظام والأمان في جميع أنحاء إمبراطوريته. ولكونه أيضاً كان يعرف تماما مدى الفوائد التي ستعود على إمبراطوريته نتيجة ازدهار التجارة، لذا، حرص على تشجيعها وتنميتها. هذا ما أستهل به هايد حديثه عن عهد شارلمان[٩١]. مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أهمية العامل التجاري في العلاقات بين الطرفين.

وفي تتبعنا بشغف للعلاقات بين هارون الرشيد و شارلمان، عثرنا على مصدر بالغ الأهمية، وجدنا من المفيد حقاً تمحيصه لمساعدتنا إلى حد ما في تقصى طبيعة تلك العلاقة؛ ألا وهو مصنف "وليم الصوري" Guillaume De Tyr

---

(٨٩) تحت أحداث سنة ٨٠٩م أورد" جوهانس ستينستروب" Johanes Steenstrup في كتابه " الغزوات النورماندية في فرنسا": أنه في هذا العام توفى خليفة بغداد هارون الرشيد" شارلمان العرب".(أنظر: Les Invasions Normandes En France, Paris, 1969, P.12.) وفي واقع الأمر ينبغي أن يكون التشبيه معكوساً لكون هارون الرشيد أعظم مرتبة من شارلمان.

(٩٠) عاصر شارلمان ستة من خلفاء بني العباس هم: المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/٧٥٤-٧٧٥م) و المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) والهادي (١٦٩-١٧٠هـ/٧٨٥-٧٨٦م) والرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٩م) والأمين (١٩٣-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م) وأخيراً أوائل عهد الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ/٨١٣-٨٣٣م). وعاصر ثلاثة من الأمراء الأمويين في الأندلس وهم: عبدالرحمن الداخل(١٣٨-١٧١هـ/٧٥٦-٧٨٨م) وابنه هشام (١٧١-١٨٠هـ/٧٨٨-٧٩٦م) وحفيده الحكم الربضي (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م).

(٩١) Heyd, T.I, P.90. أنظر أيضا: الترجمة العربية، جـ١، ص ١٠٦.

وعنوانه "تاريخ الأحداث التي وقعت فيما وراء البحار" Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum ترجمه حسن حبشي تحت عنوان "الحروب الصليبية". ففي الفصل الثالث من الكتاب الأول وعنوانه "كيف أجدت صداقة الإمبراطور شارلمان مع هارون الرشيد "ملك فارس" على المسيحيين الذين كانوا يعيشون في كنف الإسلام". أكد تأكيداً قاطعاً على وجود علاقات[٩٢] بين هارون الرشيد و شارلمان، وأنها كانت قائمة على أساس من التفاهم المتبادل بينهما. وأن تلك العلاقة الوطيدة أرسى دعائمها شارلمان عن طريق استمرار سفاراته جيئة وذهاباً ، وأرجع ذلك إلى ود هارون الرشيد - كما سبق القول -.

وكان وليم الصوري منصفاً حين اعترف صراحة أن المسيحيين الشرقيين عاشوا في أمن وأمان في عهد الخليفة هارون الرشيد *"حتى لكأنهم يعيشون في ظل حكم الإمبراطور شارلمان وليس تحت حكم هارون "*.

---

(٩٢) أنكر بارتولد أن يكون شارلمان قد فاوض الرشيد مستنداً في رأيه هذا "على سكوت المصادر العربية و المسيحية الأخرى عدا المصادر الثلاثة اللاتينية" (أنظر: دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، ص ٢٤). وفي صفحة ١٠٣ ذكر أنه لايوجد أي دليل للشك في صحة مايلي: "أن رعايا شارل الكبير قد قاموا بزيارات وأسفار إلى دولة هارون الرشيد، كما قام رعايا الخليفة بأسفار إلى دولة شارل. إن حكومة شارل اعتبرت هذه الزيارات (العلاقات) وكأنها تبادل سفارات. ولم نعثر في المراجع الأوربية الغربية ولا في المصادر الشرقية على أية حجة أو دليل مقنع يدعم الفرضية القائلة بأن ممثلي الحكومة والمجتمع الإسلامي قد عرفوا بوجود شارل وحكومته [علما بأن المصادر الإسلامية المشرقية منها والأندلسية قد أشارت إلى ثورة سليمان بن يقظان على أمير قرطبة واستنجاده بشارلمان. أنظر: الفصل الخامس، ص ٢٠٩-٢٢٠ مما يؤكد معرفة المصادر الإسلامية بشارلمان. أو أن سفارات قد أرسلت من الخلافة إلى شارل تناسب مقامه، أو أن الخليفة قد أجاب رغبات الملك شارل". ويبدو أن الرحيلي ـ كعادته ـ نقل عن بارتولد الكثير إذ أورد "لم تشر المصادر الإسلامية إلى أي نوع من الصلات بين ملوك الفرنجة وخلفاء العباسيين الأوائل، كما سكتت عن ذلك المصادر النصرانية المعاصرة في الشرق سواء في ديار الإسلام، أو في الدولة البيزنطية" (أنظر: العلاقات السياسية بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة، ص ٣٨.) وفي بحث ثان له نشر في ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة سنة ١٩٩٩م، حصاد (٧) لم يأت بجديد في بحث بعنوان "نقد الآراء التاريخية حول علاقة الإمبراطور شارلمان بفلسطين" إذ أورد أنه لا توجد أية إشارة لهذه البعثات في المصادر الإسلامية والنصرانية الشرقية، كما أنه لم يعثر على سجلات البطرقية [صحتها سجلات بطاركة] بيت المقدس عن تلك الفترة. (أنظر: العرب و أوربا عبر العصور: ص١٦٠.) علما بأن كل من بارتولد والرحيلي كانا قاطعين في موضوع هام كهذا كأنهما تفحصا كافة المصادر الإسلامية والنصرانية الغربية منها والشرقية. دون أن يعلما أن وليم الصوري أفاض في هذا الموضوع.

وسجل أيضاً أن شارلمان *"كان يُؤثر هارون الرشيد بمودته على سائر ملوك الدنيا وحكامها"* (٩٣).

وتطرق وليم إلى السفارات المتبادلة، إذ ذكر أن شارلمان بدأ بسفارة لزيارة القبر المقدس وكنيسة القيامة، وقدم مبعوثوه الهدايا والتحف إلى الخليفة العباسي، وأخبروه بمطالب شارلمان، فوافق عليها وزاد بأن تنازل لشارلمان عن الأراضي المقدسة ـ كما يدعي وقد سبق الإشارة إلى ذلك ـ.

وفي رحلة العودة أوفد بصحبتهم مبعوثيه حاملين هداياه الثمينة "من الثياب الحريرية والتوابل وغير ذلك من منتجات الأقطار الشرقية(٩٤)". كذلك أورد وليم الصوري أن هارون أرسل من قبل ـ بناءً على طلب شارلمان ـ فيلاً كان الوحيد عنده(٩٥).

بعد ذلك، يذكر وليم الصوري العون المقدم على الدوام من قبل شارلمان للمسيحيين الموجودين في القدس، وكذا مصر وأفريقيا. *"عطفاً منه عليهم ولسد حاجتهم"*. وشملت صدقاته بلاد الشام ومصر وبيت المقدس والإسكندرية وقرطبة. وكان ذلك سببا أساسياً ـ وفق ما يدعي ـ حمله على عقد أواصر الصداقة مع الملوك المسلمين، حتى يزيح الاضطهاد عن مسيحيي الشرق *"الذين يعيشون تحت رحمة هؤلاء الحكام"*.

وبذلك تناقضت رواية وليم الصوري في مستهل حديثه مع ما أختتم به الفصل. فقد أكد في البداية أن المسيحيين الشرقيين كانوا يعيشون كأنهم تحت حكم شارلمان؛ أما في نهاية الفصل، فقد خالف ضميره كمؤرخ منصف حين أورد أن "القدس وما حولها كابدت الكثير من الشدة، بسبب كثرة تغيرات الظروف والأحوال خلال هذه الفترة الانتقالية(٩٦).

---

(٩٣) وليم الصوري: جـ١، ص ٦٧.

(٩٤) أهمل وليم الصوري ذكر تفاصيل الهدايا كما وردت في المصادر الفرنجية.

(٩٥) وليم الصوري: جـ١، ص ٦٧-٦٨.

(٩٦) وليم الصوري: جـ١، ص ٦٨.

إلا أنه كان منطقياً في تبريره، حين أرجع سبب ذلك إلى طبيعة كل حاكم تسند إليه مقاليد الأمور في المدينة المقدسة إذ أورد:

<< وكان تغير الأحداث المستمر يتمثل في تبدل ولاتها وحكامها الواحد بعد الآخر، كما مرت عليها فترات وضاءه وأخرى كالحة تبعاً لطبيعة كل حاكم >>.

وشبهها آنذاك تشبيهاً بليغاً حين قال فيها:

<< أشبه بحال مريض تتحسن حالته تارة، وتسوء أخرى بتغير الأيام >>(٩٧).

على أية حال، لم يطرأ على بال أحد من الباحثين الأجانب أو العرب الإطلاع على هذا المصدر الهام ـ وقد أرشدني إليه أستاذي الفاضل ـ فرغم كون وليم الصوري غير معاصر للأحداث إلا أنه استمد مادته التاريخية من المصادر الأصلية والمعاصرة. وحسب قول العالم الإنجليزي "ستيفن رنسيمان" Steven Runciman يعد وليم الصوري "واحداً من أعظم مؤرخي العصور الوسطى على الإطلاق"(٩٨).

هذا عن الدراسة التحليلية النقدية لمصنف الحوليات الملكية الفرنجية ومقارنته ـ قدر الاستطاعة ـ بمعظم المصادر الفرنجية. وإذ انتقلنا إلى المصادر الإسلامية نجد أنها تجاهلت الإشارة إلى تلك العلاقات بين زعيم يدين بالإسلام ويرعاه ويسعى حثيثاً إلى دعوة العالم أجمع لاعتناقه، وآخر يدين بالمسيحية ويتبناها في ربوع العالم، وينصب نفسه مدافعاً عنها وعن معتنقيها.

---

(٩٧) وليم الصوري: جـ١، ص ٦٧.

(٩٨) Runciman, St,. A History of The Crusades, Cambridge, 1951-1954, T.II, P. 437. أنظر أيضاً: ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ـ بيروت ١٩٦٨م ـ جـ ٢، ص ٧٧٣. للتفاصيل عن وليم الصوري أنظر: عمر كمال توفيق: "المؤرخ وليم الصوري " ـ مجلة كلية الأداب جامعة الإسكندرية ـ العدد الحادي والعشرين ـ الإسكندرية ١٩٦٧م، ص ١٨١-١٩٤؛ سهيل زكار: "الحروب الصليبية- الحملتان الأولى والثانية حسب روايات شهود عيان ـ دمشق ١٩٨٤م ـ جـ١، ص ٩١-٩٣.

وفي تعقيب على تجاهل المصادر الإسلامية لتلك العلاقات، فمن المؤكد أن المؤرخ المسلم آنذاك لم يرق له على الإطلاق ذكر تلك العلاقة التي تعتبر من وجهة نظره شائنة ولا تروق له لكون هذا العصر قمة مجد الإسلام هذا من ناحية؛ و لربما كان المؤرخ المسلم ينظر إلى العالم الإسلامي الممتد آنذاك من المحيط الأطلنطي إلى بلاد الصين ويسير أموره خليفة عباسي يتمتع بشأن ونفوذ بالغين؛ سيقلل من شأنه ومكانته ونفوذه مثل تلك العلاقة مع عدو عقيدته المدعو شارلمان، وبالتالي يزداد حجم شارلمان ويكبر على حساب خليفة المسلمين. وربما أيضاً كان سبب هذا التجاهل أن تلك العلاقات اتسمت بطابع السرية، فلم تفح رائحتها لكونها كانت بين قطبين مختلفين في العقيدة. لذا، حرص البلاط العباسي على سريتها التامة، بينما لم يجرؤ مؤرخ مسلم على سردها في مصدره، حتى لو علم بتفاصيلها خوفاً من بطش السلطة. هذا بينما أوردت تلك المصادر تبادل الهدايا بين العباسين والبيزنطيين. إذ أورد الطبري- كما سبق أن ذكرنا- أن هارون الرشيد أرسل هداياه إلى نقفور الأول الإمبراطور البيزنطي، والسبب في ذكرها أن حدود الدولتين كانت متلاصقة، وكانت العلاقات التجارية نشطة بينهما حتى في أوقات الحرب.

وعلى النقيض تماماً من المصادر الإسلامية، نجد إفاضة عن تلك العلاقات في مصادر أجنبية معاصرة؛ ألا وهي الحوليات الملكية الفرنجية وإينهارد وحولية مواساك وحولية سان جال وحوليات لورانسس وحوليات لورسهامسنس. كما سبق شرحها.

أما سبب تضخيم شأن هذه العلاقات في المصادر اللاتينية المعاصرة منها والقريبة من الأحداث، فمن الواضح أنها أرادت تعظيم شارلمان ومساواته بالخليفة العباسي من ناحية؛ وتضخيمه أكثر فأكثر حين أوردت محاولاته الزواج بالإمبراطورة إيرين وتوحيد العالمين المسيحيين آنذاك الشرق والغرب ـ رغم ما بينهما من خلاف مذهبي وعداء ضار منذ زمن بعيد ـ والتربع على عرش موحد يفوق في اتساعه الخلافة العباسية الفتية، والتي كانت تزداد أتساعاً ونفوذاً يوماً بعد يوم، وبالتالي سيزداد شأن شارلمان حتى يصبح القوة العظمى المسيرة للأحداث شرقاً وغرباً آنذاك، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، بعد خلع الزوجة المرتقبة من العرش وإسدال الستار على زواج المصلحة ـ سالف الذكر ـ، رأى شارلمان ضرورة

تدعيم وتوثيق العلاقة مع الخليفة العباسي هارون الرشيد، حتى يُرْهِب الإمبراطور البيزنطي ويعترف بتتويجه إمبراطوراً على الإمبراطورية الغربية.

ولا يغرب عن بالنا أن العصر الذي نتناوله بالبحث اسماه "ول ديورانت" "عصر الإيمان"[٩٩] بدلاً من تسميته العصور الوسطى. فقد هيمنت المسيحية الكاثوليكية بتزمتها البالغ وتعصبها على مقدارت الأوربيين وفكرهم آنذاك. فنتج عن ذلك أن أصبحت العصور الوسطى الباكرة تسمى "بعصور الظلام" كما أسماها إسحق عبيد[١٠٠]، وسبقه إلى هذا المؤرخون الأوربيون من بينهم على سبيل المثال لا الحصر "شارل اومان" في كتابه "العصور المظلمة"[١٠١] وكير "العصور المظلمة"[١٠٢] وغيرهما.

من هذا المنطلق، أظهرت المصادر الفرنجية أن شارلمان حرص ـ عن طريق علاقاته الودية مع هارون الرشيد ـ على بسط سيادته على المقدسات المسيحية من ناحية، ورعاية مسيحيي الشرق والحجاج المسيحيين الأوربيين الحاجين إلى الأراضي المقدسة من ناحية ثانية. ووصل الأمر بتلك المصادر إلى المبالغة في سماحة الخليفة العباسي من منطلق الدافع الديني الذي يحثه على التسامح مع أهل الذمة، إلى القول إن هارون الرشيد اعترف بسيادة شارلمان على المقدسات المسيحية.

وإذ القينا لمحة سريعة على المراجع الأجنبية والعربية والتي تميزت العربية منها بتناقل المعلومات عن بعضها البعض وعن الكتب المعربة، . فنلاحظ تضاربها في الأراء.

---

(٩٩) ول ديورانت: قصة الحضارة (عصر الإيمان)- ترجمة محمد بدران- المجلد الثامن - القاهرة ٢٠٠١م.

(١٠٠) إسحق عبيد: العصور الوسطى الأوربية (عصر الظلام) – القاهرة (د. ت).

(١٠١) Oman, Ch., The Dark Ages 476-918, London, 1962.

(١٠٢) Ker, W. P., The Dark Ages, London, 1955.

فالرأي الأول: أفاد أن سبب العلاقة الحميمة التي ربطت بين شارلمان وهارون الرشيد يعود في الأساس إلى تكوين حلف عسكري بينهما[١٠٣] لمواجهة مسلمي الأندلس المستقرين جنوب بلاد الفرنجة والإمبراطورية البيزنطية القابعة شمال الخلافة العباسية. وهذا الرأي مرفوض على الإطلاق لأن كافة الحوليات الفرنجية لم تشر إليه لا من قريب ولا من بعيد.

والرأي الثاني: يرى أن العلاقات كانت في الأساس تتسم بطابع ديني[١٠٤] مستنداً في ذلك إلى أن شارلمان أعتبر نفسه ـ كما سبق أن أوضحنا في فصول الرسالة ـ حامي حمى المسيحية و المسيحيين، وأراد إغداق صدقاته على

---

(١٠٣) عنان: "مواقف حاسمة"، ص ١٣١-١٣٢، ١٣٧؛ عبد المنعم ماجد: ص ٧٤؛ العدوي: "المسلمون والجرمان"، ص ٢٦٤-٢٦٨؛ السفارات الإسلامية إلى أوربا في العصور الوسطى"، ص ٩٤؛ طرخان: ص ١٩٢-١٩٣؛ حسن أحمد محمود وإبراهيم الشريف: "العالم الإسلامي في العصر العباسي "- القاهرة ١٩٨٢م، ص ١٧؛ عزيز سوريال عطية: " الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب"- ترجمة فيليب صابر سيف – القاهرة ١٩٩٠م، ص ٢٤؛ محمد مؤنس عوض: " الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس"- القاهرة ١٩٩٢م، ص ٢١؛ ستيفن رنسيمان: جـ١، ص ٤٩؛ رينو:ص١٠٢. أنظر أيضاً: Buckler, P. 22; Kleinclausz, PP. 343-344.

(١٠٤) ديفز: شارلمان، ص ١٠٢؛ هايد: جـ١، ص ١٠٦-١٠٧؛ عنان: مواقف حاسمة ، ص ١٣١-١٣٢؛ طرخان: ص ١٩٣، ١٩٥؛ السيد الباز العريني: بعض معالم عهد شارلمان – المجلة التاريخية المصرية- المجلد الثامن- القاهرة ١٩٥٩م، ص ١٤٧-١٥٠؛محمد مرسي الشيخ : دولة الفرنجة وعلاقتها بالامويين في الأندلس:ص١٦٦.أنظر أيضاً: Heyd, T.I, P. 91; Amann, P. 198; René Grousset, Histoire des Croisades, Paris, 1934, T. I, P.VI; Vasiliev, Histoire de L' Empire Byzantin, T.II,P. 22; Charlemagne et La Palestine, R.H., Paris 1928, T.CLVII,P.287.

الفقراء المسيحيين، وتسهيل عملية الحج إلى الأراضي المقدسة بعد أن تنازل له هارون الرشيد ـ كما يزعمون ـ عن حق السيادة على بيت المقدس(١٠٥).

فرغم ورود الرواية السابقة في كل من إينهارد و وليم الصوري وكاتب سيرة سان جال إلا أنها لا تتفق مع الحقيقة والواقع؛ علماً بأننا أثبتنا أن هارون الرشيد كان يهدف من ذلك أن ينعم على شارلمان بإشراف معنوي وشرفي على الأراضي المقدسة(١٠٦).

---

(١٠٥) Louis Bréhier, Les Origines des Rapports entre la France et la, Syrie le Protectorat de Charlemagne, Chambre de commerce, de Marseilles congrès Français de la Syrie, Séances et Travaux, Fasc. II Marseilles, 1919, P. 29; La Situation des Chrétiens de Palestine à la fin du 13^{e} siècle et l'établissement du Protectrorat de Charlemagne", Moyen Âge, Vol. XXI, 1919, P.70; Kleinclausz, "La Légende du Protectorat de Charlemagne sur la Sainte", Syrie, Vol., VII, 1926, P. 215; Buckler, P.29,45. Terre Vie de Charlemagne, (أنظر: مستندين في رأيهم هذا على ما أورده إينهارد P.47). علماً بأننا أثبتنا أيضاً أن كل من إكيهارد(أنظر: Sasibus Monast. S. Galli, PP. 753-754). و وليم الصوري (أنظر: "الحروب الصليبية" ـ جـ١ ، ص ٦٨). أشارا إلى ذلك.

(١٠٦) أورد هذا الرأي العالم الفرنسي المحدث رينيه جروسيه في موسوعته "تاريخ الحروب الصليبية" وعلق عليه قائلاً إن هذه الامتيازات ليست إلا أمتيازات معنوية لا أكثر نتجت عن علاقته الدبلوماسية المميزة مع هارون الرشيد (أنظر: Histoire des Croisades, T. I, P. VI). علماً بأن محمد مؤنس عوض قد أبدى رأيه بأنه "يختلف مع هذا الرأي" ـ فالأرجح من وجهة نظره ـ أن هارون الرشيد لم يمنح شارلمان مثل ذلك الأشراف المعنوي" (أنظر: الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس، ص٢١) ومعنى ذلك أنه لا يعترف بالعلاقات الدينية على الإطلاق رغم إشارة المصادر الفرنجية ـ التي لم يطلع عليها ـ إشارة صريحة إلى ذلك. والأغرب من ذلك أنه أورد "أن الاتفاق بين الجانبين تناول التعاون مع الكارولنجيين من أجل محاربة الأمويين في الأندلس"(أنظر: الرحالة الأوربيون في مملكة بيت المقدس، ص٢١). وهذه المعلومة لم تشر إليها كافة المصادر الفرنجية والعربية.

أما الرأي الثالث: فمفاده أن تلك العلاقة هدفها تنشيط التجارة بين كل من الإمبراطورية الكارولنجية والخلافة العباسية(١٠٧). علما بأن بعض الباحثين(١٠٨) أرجعوا العلاقات التجارية إلى وجود احد اليهود ضمن الوفد الذي أوفد إلى بغداد سنة ٧٩٧م في أول سفارة بعثها شارلمان إلى هارون الرشيد، لكن دور هذا اليهودي كان مقصورا على الترجمة وليس التجارة؛ فإذا كان هدف شارلمان من إيفاد هذا اليهودي للتجارة لشكل وفدا ضم على الأقل ثلاثة تجار من اليهود. ومما يؤكد ما ذهبنا إليه عدم إشارة المصادر الفرنجية إلى ذلك.

وأخيراً يأتي الرأي الرابع: ومفاده أن سبب تلك العلاقة ليس إلا علاقات ودية وتقرب من هارون الرشيد ومقصورة على تبادل الهدايا والمجاملة(١٠٩) دون تبرير أهداف وأسباب ذلك. إلا إننا نرى أن شارلمان ربما كان يسعى من ذلك مصادقة قوة عظمى تتمثل في الخلافة العباسية، لإخافة الإمبراطورية البيزنطية وإكراهها على الاعتراف به إمبراطوراً، بدلاً من منازعته. فيكفيها التفرغ لمواجهة الخلافة العباسية القابعة في جنوبها والتي اقتطعت الكثير من أوصالها.

ختاماً نرى أن شارلمان كان أول من أوفد سفارة إلى هارون الرشيد ليس حبا فيه ولكن بدافع من المصلحة الدينية والتجارية معاً. الدينية وتتمثل في إقتناعه الكامل ـ كما سبق أن ذكرنا كثيراً ـ "حامي حمى المسيحية والمسيحيين"؛ بل وكان بحق حامي البابوية ذاتها من أطماع اللمبارديين، وتمثل ذلك بوضوح بالغ في إعادة البابا "ليون الثالث" إلى السدة الرسولية. من هذا المنطلق أيضاً حرص على إغداق

---

(١٠٧) هايد: جـ١، ص ١٠٦؛ ارشيبالد لويس: ص ١٨٢. أنظر أيضاً: Hevd. T. I, P.91.

(١٠٨) حسين مؤنس: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط ـ القاهرة ١٩٩٣م، ص ١٤٥؛ محمد صابر دياب: "الدولة الإسلامية في العصر العباسي (قضايا ومواقف)" ـ القاهرة ٢٠٠١م، ص ٢٣٩؛ بارتولد: ص ١٦، ١١٣، ١٣٥. أنظر أيضاً: Buckler, P.44.

(١٠٩) عبد الجبار الجومرد: ص ٣٠٢؛ خدوري : ص٦٠؛ الرحيلي: نقد الآراء التاريخية حول علاقة الإمبراطور شارلمان بفلسطين ـ إتحاد المؤرخين العرب "العرب وأوربا عبر عصور التاريخ" ـ حصاد ٧ ـ القاهرة ١٩٩٩م، ص ١٦٣.

الصدقات لمسيحيي الشرق طبقا لاقتناعه الديني بمساندة الفقير عن طريق تخصيص العشور لسد عوزه. وكان بعيد البصر إلى أقصاه، حين حرص على تشجيع حركة حج الأوربيين إلى الأراضي المقدسة، خاصة بعد أن ساد غرب أوربا الأمن والأمان والسلام. وبالفعل نشطت حركة الحج ونتج عن ذلك نشاط صناعي وتجاري شهده سكان الأراضي المقدسة من المسيحيين الشرقيين نتيجة إقبال الحجاج على اقتناء المصنوعات المقدسة والمتمثلة في الصلبان والتماثيل الدينية والأيقونات واللوحات و المسابح والسجاجيد والملابس والهدايا العديدة المتنوعة التي سيجلبونها إلى الغرب الأوربي كهدايا لذويهم وأحبائهم. وسينتج عن ذلك ازدهاراً صناعياً وتجارياً معاً، سينعكس بالتالي بالفائدة المادية على مسيحيي الأراضي المقدسة هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية لم يمانع الخليفة العباسي في تشجيع شارلمان على ذلك. ومن الطبيعي أن يدرك تماما مدى الفائدة التي ستعود على رعاياه من مسيحيي الشرق نتيجة ازدهار السياحة الدينية. وننهي هذا الرأي بأن التجارة كثيرا ما تسير السياسة والأحداث.

الملحق الخامس

" تتويج شارلمان إمبراطوراً "
في ضوء مصدرين معاصرين"

ـ أولاً: "حوليات لورسهامنسس"

Annales Laureshamenses, Ann. 801, dans Monumentis Germaniæ Historicis, Scriptores, Éd. Katz, Hannoverae, 1889, T. I, P. 44; Éd. Pertz, 1895, T. I, P. 38.

Ann. 801(١):

" Texte "

<<... Et quia iam tunc cessabat a parte græcorum nomen Imperatoris, et femineum Imperium apud se abebant, tunc visum est et ipse apostolic Leoni et universis sanctis patribus qui in ipso concilio aderant, seu reliquo christiano populo, ut ipsum Carolum Regem Franchorum Imperatorem nominare debuissent, qui ipsam Roman tenebat, ubi simper Cæsare sedere soliti erant, seu reliquas sedis quas ipse per Italiam seu Galliam nec

---

(١) الملاحظ أن إدراج التتويج تحت عام ٨٠١م ورد أيضا في حولية "مرباسنسس". (أنظر: Annales Marbacenses, P. 7.). علما بأن غالبية المصادر الفرنجية وكذا المراجع أجمعت على أن التتويج كان في احتفالية عيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام من سنة ٨٠٠م وليس سنة ٨٠١م كما ورد في المصدرين السابقين.

non et Germaniam tinebat; quia Deus omnipotens has omnes sedes in potestate eius concessu, ideo iustum eis esse videbatur, ut ipse cum DEO adiutorio et universe christiano populo petente ipsum nomen aberet. Quorum petitionem ipse Rex Karolus denegare noluit, christiane populi in ipsa nativitate domini nostri Iesu Christi ipsum nomen Imperatoris cum consecratione domni Leonis papæ suscepit... >>

"الترجمة العربية"

تحت أحداث سنة ٨٠١م

<< ... لكون الإمبراطورية البيزنطية آنذاك بلا إمبراطور، وبما أنها كانت تحكمها إمرأة، بدى للبابا ليون، وكذا كافة رجال الإكليروس الذين كانوا مجتمعين آنذاك، و حال جموع الشعب المسيحي، بدى لهؤلاء جميعاً أنه ينبغي أن يُمْنَح لقب إمبراطور إلى ملك الفرنجة ـ شارل ـ الذي كان آنذاك مقيماً في روما، حيث كان يقيم فيها دائماً القياصرة ويتخذونها عاصمة لإقامتهم وإمبراطوريتهم، وكذا حال شعوب إيطاليا وبلاد الغال وبلاد الجرمان. فالله العزيز القوي أراد أن يضع هذه البلدان تحت سيادة شارلمان، وكان من العدل تنفيذاً لمطالب كل الشعب المسيحي أن يحمل لقب إمبراطور. وبناء على هذا الطلب، لم يرغب شارل في رفض ذلك، ولكنه أراد أن يذعن لمطالب الله ورغبات كبار رجال الدين وكل

الشعب المسيحي، وقام البابا ليون بتتويجه

إمبراطوراً بعد أن أنعم عليه بهذا اللقب...>> .

ـ ثانيا: "كتاب البابوات بابوية ليون الثالث(٧٩٥-٨١٦م)"

Liber Pontificalis, XCVIII, LEO III(795-816), Éd. Duchesne, L., Paris, 1892, T. II, P. 7.

" Texte"

<<...Et tunc venerabilis et almificus presul manibus suis propriis pretiosissima corona coronavit eum. Tunc universi fideles Romani videntes tanta defensione et dilectione quam erga sanctam Romanam ecclesiam et eius vicarium habuit, unanimiter altisona voce, Dei nutu atque beati Petri clavigeri regni caelorum, exclamaverunt: << Karolo, piissimo Augusto a DEO coronato, magno et pacifico Imperatore, vita et victoria! >> Ante sacram confessionem beati Petri apostoli, plures savctos invocantes, ter dictum est; et ab omnibus constitutus est Imperator Romanorum. Ilico sanctissimus antistes et pontifex unxit oleo sancto Karolo, excellentissimo XXIV filio eius, rege, in ipso die Natalis domini nostri Iesu Christi... >>.

" الترجمة العربية"

<< ... وآنذاك، قام البابا المبجل [أي ليون الثالث] بتتويجه بيديه، ووضع فوق رأسه تاجاً ثميناً، وهكذا، صاح كافة المؤمنون الرومان بحب بالغ معلنين بصوت عالٍ واحد أنه "بايعاز من الله والقديس بطرس حامل مفاتيح مملكة السماوات شارل التقي الأغسطس المتوج من قبل الله إمبراطوراً عظيماً، فلينعم الله عليه بالحياة والنصر".

كل هذا كان في كاتدرائية القديس بطرس. وأطلقت تلك الصيحة ثلاث مرات.

وهكذا، تم تتويجه إمبراطوراً من قبل الرومان أجمعين. وعقب ذلك، قام البابا بدهنه بالزيت المقدس. كان ذلك في نفس يوم عيد ميلاد المسيح [عليه السلام]... >>.

" التعليق على الملحق الخامس"

كان "شارلمان"، أكثر حكمة من البابا "ليون الثالث" فيما يتعلق بتتويجه إمبراطوراً[٢]. وقد سعى إلى حل مشكلة ازدواجية من يحمل لقب إمبراطور ـ ذلك اللقب الذي انتهى بخلع آخر أباطرة الغرب "رومولوس أجسطولوس"(٤٧٥-٤٧٦م) على يد "أدواكر" سنة ٤٧٦م ـ بالسعي إلى الزواج من الإمبراطورة إيرين(٧٩٧-٨٠٢م) إمبراطورة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك.

ولم يكن حدث التتويج هذا بداية للمراسلات بين إيرين وشارلمان. إذ أورد "ثيوفانس"Theophanes في مصدره تحت أحداث صيف سنة ٧٩٧م:

<< ان ايرين ارسلت خطاباً إلى

شارلمان لم يصلنا محتواه >>[٣].

لكن من المحتمل أن هذا الخطاب كان قد أرسله إلى شارلمان قسطنطين السادس وليس أمه إيرين طبقاً لما ورد في المصادر[٤].

---

(٢) من المصادر الأساسية لتتويج شارلمان إمبراطوراً الحوليات الملكية الفرنجية أحداث سنة ٨٠٠م. أنظر: Annales Regni Francorum, P. 52 ; Éd. Kurze, PP. 110, 112. وكتاب البابوات الفصل ٢٣و ٢٤. أنظر: Liber Pontificalis, C. 23, 24. والجدير بالذكر أننا تجنبنا تناول مختلف الآراء فيما يتعلق بتتويج شارلمان إمبراطوراً ومن كان وراء ذلك لكون هذا الموضوع قتل بحثاً في المراجع الأجنبية قبل العربية.

(٣) Theophanes, P.649; Ex Chronographia Theophanis, dans R.H.G.F., Paris, 1869, T. V, P. 188; The Chronicle of Theophanes, P. 155.

(٤) Annales Regni Francorum, P. 50 ; Éd. Kurze, P. 100; Annales Fuldenses, dans M.G.H.SSRG, T. I, P. 351. وقد أورد إينهارد:

<<...Legatum que Nicetae Patricii, qui tunc Siciliam procurabat, nomine Theoctistum litteras Imperatoris de Constantinopoli missas deferentemaudisset...>>

أنظر: Éginhard, Éd. Kurze, P. 101.

وعملية صنع إمبراطور من "شارلمان" وفق رأي المصدرين السابقين، خطرت على بال البابا ورجال الإكليروس والشعب الفرنجي فرضخ لرغباتهم. وبالفعل طرحت هذه الفكرة موضع التنفيذ، حتى يتم توحيد الإمبراطوريتين لتشمل إمبراطورية مسيحية واحدة(٥). ودارت المفاوضات سجالاً، وبدأت بطلب الزواج من الإمبراطورة إيرين وذلك عقب تتويج شارلمان إمبراطوراً(٦). لكن سرعان ما تحطم هذا الحلم بوقوف القدر في وجهها، وأن تعزل على يد "نقفور" وزير ماليتها. علماً بأن مبعوثي شارلمان كانا يتفاوضان في هذا الخصوص.

وبهذا، انتهى حلم توحيد الإمبراطوريتين في إمبراطورية واحدة يترأسها شارلمان. وبتولي نقفور الأول(٨٠٢-٨١١م) عرش الإمبراطورية البيزنطية، رفض أي تسوية مع غريمه في الغرب؛ إلا قبيل مقتله على يد ملك البلغار "كروم". فآل أمر حل تلك المشكلة إلى خلفه ميخائيل الأول رنجابيه(٨١١-٨١٣م) الذي تربع على عرش الإمبراطورية في عام ٨١١م. وانتهت تلك المشكلة في عام ٨١٢م حين قبل شارلمان أن يُعيد بعض الأراضي التي اغتصبها من قبل إلى الإمبراطور البيزنطي.

وهكذا، نجح السفراء البيزنطيون في إكس لا شابل في تحقيق هذا الاتفاق، والمقابل هو الاعتراف بشارلمان إمبراطوراً، ولكن ليس للرومان. وحظي كذلك بلقب الأخ الروحي للإمبراطور البيزنطي أو بمعنى أدق الإمبراطور الروماني (إمبراطور الغرب). هذا بينما كان الملوك الميروفنجيون ليسوا إلا أبناء إمبراطور العالم - أي الإمبراطور البيزنطي -(٧).

---

(٥) Annales Laureshamenses, Ann. 801, Éd. Pertz, dans M.G.H.SS., T. I, P. 38; Ed. Katz, P. 44; Liber Pontificalis, T. II, P. 7.

(٦) Halphen, Études Critiques, PP. 236-237.

(٧) Lounghis, P. 161.